مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

دائرات المعارف
وصلتها بالمعجم التاريخي (العربي)

بحث : الأستاذ فرحات الدريسي

إنّ الظن الغالب انّ من أعلق ضروب التصنيف بعصر التدوين من جهة جمع المادة اللغوية وعلى تقرير السّبق في الزمان التأليف المعجمي في اللغة العربيّة [1] ولعلّ حركة التأليف المعجمي بطبيعتها ـ من جهة العموم ـ وعند العرب ـ من جهة الخصوص ـ من أكثر حركات التأليف انشدادًا الى الرغبة في الاحاطة وفي الشمول [2] ابتغاء الاستيفاء والاستتمام .

ولعل هذا المقصد ذاته ظلّ ـ إلى جانب دوافع أخرى ـ يستحثّ ـ إن قليلا أو كثيرا ـ حركة التأليف المعجمي في العصر النهضوي الحديث على تقرير ما بات يقينا من حرص شديد على رصد نقائص المعجم العربي وتتبع هناته وضبط سقطاته تصحيحا واستدراكا وإحياء ووضعا [3] .

(1) ـ انظر مثلا : حسين نصّار = المعجم العربي . نشأته وتطوره . دار مصر للطّباعة .
محمد حسن جبل = «الاستدراك على المعاجم العربية» دار الفكر العربي . 1986

(2) ـ انظر مثلا : «الأزهري» تهذيب اللغة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة 1964 ـ 1967 ، (10 أجزاء) .
ـ «الجوهريّ» : «الصحّاح» ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . دار الكتاب العربي القاهرة 1956 (6 أجزاء) .

(3) ـ انظر : محمد ضاري حمادي : حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث ، دار الرشيد ، وزارة الثقافة والاعلام بالجمهورية العراقية ، بغداد ، 1980 .
أحمد الشرقاوي إقبال : معجم المعاجم دار الغرب الاسلامي بيروت 1987 .

إنّها لتـذكرة ناصّة على انّ سمة الاستيفاء في العمل المعجمي موسوعيا كان او عامّا أو متخصصا من اللّزوم في صناعة المعجم من جهة الجمع لكنها لا ترقى إلى الكفاية حتى وإن تعددت المصادر والمراجع واتّسعت فضـلا عمّا يحكمهـا من شرائط وعـمّا يصـدر عنه مزاوله من متصورات وأحكام [4].

ولعـلّ الاجماع مستحصل تصريحا وتلميحا على ان مردّ مطعن القصور في شأن حركة التأليف المعجمي بالعربية ـ على قدم تلك الحركة ـ إلى خلوّهـا من معجم يستقلّ بأطوار استعمال الكلمة على اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ولعلّ بعض المستشرقين ممّن وقف عمله على الدراسات اللغوية ـ في حدود المعلوم من الوثائق ـ من أول من فطن الى خلوّ حركة التأليف المعجمي بالعـربية من معجم تاريخي وإن انـبرى هو نفسه يستكمل المعـاجم العربية ويستجمع شيئا من الرّابطات الجامعة بينها وبين ما سواها من الألسنة [5] بهدي من رؤية ستستحكم ملامحها في نوع من المعـاجم لغير العرب في أزمنة لاحقة [6] ألحّ فيها اصحابها على قيمة

---

(4) ـ انظر: السيوطي: المزهر في علوم اللّغة وأنواعها تحقيق محمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبي الفضل دار إحياء الكتب العربية (د. ت)

(5) ـ R. Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes E.J.Brill Leyde 3éme éd 1967 2vol

R. Dozy : dictionnaire détaillé des noms des vetements chez les arabes, Amsterdam, 1845

(6) ـ انظر على سبيل المثال:

Emile Genest: Dictionnaire des citations (des phrases, vers et mots célèbres employés dans le langage courant avec précision de l'origine), Paris 1967

ومّما جاء في تقديمه (ص6):

«Nombre de pensées reflexions, sentences, maximes éparses chez les écrivains français ont pris l'aspect de proverbes ou s'implantent en «phrases connues» dans les livres, écrits, discours journaux etc... On les énonce, on les répète à l'envi sans se rappeler toujours leur état civil, l'œuvre qui les contient, l'écrivain qui leur a donné le jour»

المرجع وموطن الاستعمال قديما حديثا . . .

[كم من أفكار وآراء وأحكام وحكم منثورة عند الكتاب الفرنسيين قد جرت مجرى الأمثال أو تنـزّلت جملا مألـوفـة في التصانيف والتآليف والأقوال والصحف وغيرها . . . يتلفظ بها الانسـان ويكرر استعمالها قدر ما شاء دون أن يتذكر أبدا أصولها ومرجعها والمؤلف الذي استعملها أوّل مرّة].

انظر أيضا :

Paul Rouais: Dictionnaire des idée suggérées par les mots. 33éme édition. Armand colin Collection U Paris (S. d.)

ومما ورد في تمهيده :

... Le mot sur le bout de la langue ou de la plume et ce mot ne se présente pas a l'esprit , où le chercher? où le trouver?...

إلى أن يقول :

... Et ces mots éveillent les idées remédiant ainsi à la difficulté plus grande d'aller de l'idée au mot que du... mot à l'idée.

[اللفظ على مشارف طرف اللسان او يقارب تسطير القلم إلاّ أنّه لا يتجلّى للذّهن فأنّى يبحث عنه؟ وأنّى يعثر عليه؟

. . . وتهدى تلك الألفاظ [الذّهن] الى المعاني فتخفف وطأة النّهج الأعسر بالانتقال من المعنى الى اللّفظ بدل الانتقال من اللّفظ الى المعنى].

ولقـد ترسم ـ الآن ـ الاستعمال ولواحقه سلطة لغويّة عنها يصدر العمل المعجميّ محكوما بقانون تطوّر اللغة.

انظر ـ على سبيل المثال :

Cahiers de lexicologie

(Revue Internationale de lexicologie et lexicographie) vol L 1987. Article F.J.H Le dictionnaire, catalogue d'emplois, étude de lexicographie comparée. PP. 107 - 114.

ومّما ورد فيه :

Les dictionnaires selon la belle formule de Robert Léon wagner sont non seulement des cataloges de mots, mais en rapport direct avec leur qualité des catalogues d'emplois... Il ne saurait y avoir de bon dictionnaire d'usage sans la «présentation des emplois réels des mots dans le discours».

[إنّ المعاجم ـ حسب قولة روبر ليون فيقنر ـ البليغة ليست قائمات ألفاظ فحسب وإنّما هي أيضا من جهة النّظر الموصول بكيفيّة ما هي عليه قائمات في وجوه استعمال . . .

إنّـه ليس بوسعنـا أن نحصـل على معاجم صالحة للاستعمال ما لم نعرض وجوه استعمال الكلمات كما هي عليه في واقع الكلام.]

وأمّا الحركة المعجمية العربية ـ على تنوّع مسائلها وثراء موادّها واختلاف مقاصدها وتعدّد مناهجها ـ فقد ظلّت قديما وحتى حديثا محكومة ـ على وجه الخصوص ـ بمقصدي التصويب اللغوي وتقويم اللّسان أو منشدّه إلى الغريب بأصنافه. ولئن كان حظّ معاجم المعاني من الحركة المعجمية حظّا غير مبخوس (معاجم الأضداد والترادف والاشتراك . . .) [7] فإنها حركة معجمية قد انخرطت في الفصاحة والبيان رغبة في حقّ القول وحق النّقض فنشأ عن ذلك ان كانت قاصرة عن إدراك تحولات معاني الألفاظ ودلالاتها وعن استيعاب معاني تلك التحولات وفق اختلاف الأزمنة والأمكنة [8].

وإذ رقي الثقافي في الذهنية العربية بصفة أعمّ واللّغويّة عموما والمعجمية خصوصا منذ قرن أو يزيد صارت إثره مباحث الزمان والمكان من مطالب الفكر التحديثي وصحّ العزم على مقاربة صناعة المعجم التاريخي للّغة العربية بعد ان استساغ التفكير اللغوي ذاك المبحث على صعيدي الفرداني والمؤسساتي ارتأينا ان لا يغفل البحث عن مدى ما يمكن ان تسهم به دائرات المعارف أو الموسوعات من جهة ما قد يخاله لغوي من وسائط بين دائرة المعارف وبين المعجم عامّة والمعجم التاريخي خاصة على صعيدي المعرفي والمنهجي قد يستخلص منها الباحث تقاطعا أو توازيا بين دائرة المعارف والمعجم.

---

(7) ـ انظر ـ مثلا ـ أحمد الشرقاوي إقبال: معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية)، الجمعية المغربية للتّأليف والترجمة والنشر دار الغرب الاسلامي ط (1) بيروت 1987.

(8) ـ انظر خاصة: أوجيست فيشر: المعجم اللغوي التاريخي القسم (1) من أول حرف الهمزة الى (أبد). نشر مجمع اللغة العربية ط (1) القاهرة 1967. يقول في ص. 7 متحدثا عن المعجم التاريخي: «. . . يجب ان يحوي المعجم التاريخي كل كلمة تُدُوولَتْ في اللغة... لكن المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظر هذه إذ أنها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة بل تقتصر على إيضاح الاتجاه النموذجيّ لها. . . ولكنه [هذا الاتجاه] عاق القوة الحيوية الدافعة في اللغة عن التقدم والتوسع.

وإذا كانت قيمة الافتراض في البحث مقترنة بمدى إخصابه فان شرعية هذا المبحث تترسّم من جهة ما يستحصل من عناصر المؤالفة والمجانسة بين خطّة دائرة المعارف وخطّة المعجم التاريخي على تقدير المقصد النظري والعمل الاجرائيّ.

وإنّها لتضيق على تقدير ما يكون بينهما من عناصر المخالفة والمغايرة [9]. فكيف تتجلّى حينئذ في دائرة المعارف درجة الوعي ـ متى استخلصت ـ بالبعد التاريخي للكلمة في علاقته بالاستعمال على تقدير تطوير المعنى وتتبع تحوله وتسجيله وفق أطوار تاريخية للكلمة بالحرص على التنصيص على معناها الاول في زمن استعماله الاول وعلى تثبيت التدرج في ضبط تحولات المعنى وفي تفسير معنى تلك التحولات [10].

إنّ مبدأ مطلبنا حينئذ في تدبّر جهود موسوعية فردية عددنا منها دائرة معارف بطرس البستاني [11] ثم دائرة معارف محمد فريد وجدي [12] وفي تدبر جهد جماعي «دائرة المعارف الاسلامية» قام به أعلام المستشرقين [13] دون ان نغفل كل الغفلة عن جهود موسوعية

---

(9) ـ لعل في ذلك تبريرا لما أشار اليه أوجيست فيشر في مرجعه السابق ص 6، بقوله: «... ومن المرغوب فيه كل الرغبة القيام ببحث دقيق قائم بذاته عن علاقة المعجمات العربية بعضها ببعض او بعبارة أخرى عن ردّ بعضها الى بعض»

(10) ـ انظر على سبيل المثال مقدمة:

J. Picoche: Dictionnaire Etymologique du français (les uusuels du Robert). N. ED. 1983. Paris

(11) ـ بطرس البستاني دائرة المعارف وهو قاموس عام لكل فنّ ومطلب ط. بيروت 1876 (6 ج)

(12) ـ محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن الرابع عشر/العشرين. دار المعرفة للطباعة والنشر ط. 3 بيروت 1971 (10 مج)

(13) ـ دائرة المعارف الاسلامية نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي ـ أحمد الشنتاوي ـ إبراهيم زكي خورشيد ـ عبدا لحميد يونس (د. ت) (14 مج)

أخرى قد يقلّ شأنها في حدود ما نروم اختباره من مبحث معجمي وقد عددنا منها دائرة معارف الأعلمي [14] ودائرة المعارف العثمانية [15] وموسوعة أحمد عطية الله [16] وموسوعة التهانويّ [17].

يلحظ الناظر في مقدمات دائرات المعارف منذ البداية أنّ أصحابها لا يصدرون ذهينا عن نظرية في تأليف المعاجم أو عن شعور بنقائص المعاجم العربية او عن رغبة في تأليف معجم جديد أو عن إدراك ناصّ على وعي عارف بالبعد التاريخي في علاقته باستعمال الكلمة من جهة جواز ان يتطور معناها الاول من حيث المفهوم والاستعمال وفق أطوار تاريخية للكلمة وإنما أمر أهلها من العرب دون استثناء إحياء الآداب والمعارف واللغة العربية وتيسير تحصيلها وترويضها على التعبير عن «وسائط التمدن والتقدم» [18] لاتساع أفق المعرفة، وأمّا حاصل نوايا المستشرقين ومقاصدهم فنشر تراث الاسلام وتعميمه وتعميق المعرفة به بالكشف عن أسسه ومثله [19] بينما ظلّت دائرة معارف

---

(14) ـ محمد حسين سليمان الأعلمي : دائرة المعارف المسماة بمقتبس الأثر ومجدّد ما دثر ط(1) مطبعة الحكمة قم 1374هـ.

(15) ـ دائرة المعارف العثمانية ط(1) حيدر آباد الدكن الهند (د.ت) (3 مج)

(16) ـ أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1963/1966 (5 مج)

(17) ـ محمد التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون تحقيق لطفي عبد البديع ترجم النصوص الفارسيّة عبد النعيم محمد حسنين وراجعه أمين الخولي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر 1963 (2 مج).

(18) يقول محمد فريد وجدي : في مقدمة مج (1)

«... ولكننا اليوم... ذكرنا حاجة الامة الى دائرة معارف أغزر مادة وأجمع فوائد... ولكن من أين لهم هذا إلاّ بدائرة علوم مستكملة لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها؟... فأجمعنا على وضع دائرة معارف... فعزمنا أن نتوسع في قسم اللغة توسعا لا يدع حاجة في النفس وان نتسبّط في القسم العملي تبسّطا يبلغ بالطالب غاية ما يرمى اليه»

ـ انظر كذلك مقدمة البستاني

(19) ـ انظر مقدمة دائرة المعارف الاسلامية مج(1) الترجمة العربية

الأعلمي والعثمانية وموسوعة التهانويّ محكومة بغاية الاستدراك والاتمام بدافع رغبة جارفة في الاستيفاء والشمول [20].

إنّ ما ألمعنا إليه لا يعني البتّة ان خطة دائرة المعارف ـ عند المحدثين العرب ـ المحكومة بالمقصد النهضوي على صعيد المعرفيّ قد رقيت الى درجة احتجب معها أثر خطّة المعجم في دائرة المعارف إذ ما انفكّ مفهوم المعجم يكافىء من بعض وجوهه مفهوم دائرة المعارف إذ يرسّم بطرس البستاني عنوانا يقرن بين دائرة المعارف والمعجم على هذا النحو: «دائرة المعارف = وهو قاموس عام لكلّ فنّ ومطلب».

ويضيف في الصّفحة الخامسة من مقدّمته مج (1) «فهي . . . قاموس عام للمعارف من جغرافية وتاريخية وعلمية وصناعية وسياسية وأدبية يحتوي على كلّ ما تصبو إليه النفس ويغني مقتنيه عن مكتبة كبيرة».

وينصّ «وجدى» في مقدمته. مج (1) على ان دائرة معارفه «قاموس عام مطوّل للغة العربية والعلوم النقليّة والكونية بجميع أصولها وفروعها» ويثبت «الأعلمي» في مقدمته. ص 2: أنّ دائرة معارفه « معجم كبير وسفر خطير جمع فأوعى وحاز فأوفى».

ويلحظ الدّارس انّه كثيرا ما حافظت دائرة المعارف عند العرب ـ على وظيفة المعجم إن لم نقل تأسّست عليها إلى حدّ كبير إذ يقول وجدى ـ مثلا ـ في مقدمته «فقد وضعنا كتابنا (كنز العلوم واللغة) قبل خمس سنين وكان غرضنا الأول منه أن نحصر خلاصة معلومات البشر كلّها في دائرة واحدة. . . ولكنّنا اليوم . . . . أجمعنا على وضع (دائرة معارف) على أسلوب يناسب الحاجة العصرية ليكون بإزاء سابقه (كنز العلوم

---

(20) ـ يقول الاعلمي في مقدمة مج(1) ص 7

«والباعث على التأليف أنني نظرت في كتب أصحابنا رضوان الله عليهم وموسوعات تراجمهم التي بأيدينا من المصنفات والمؤلفات فوجدناها خالية من ذكر جمع من الأعاظم وأعيان الرجال وثقاة الرّواة. . .».

واللغـة) كدائـرة معارف لاروس الكبيرة بجانب قاموسه الصغير. . . فبدل ان نقتصر على بعض اللغة نلمّ باللغة كلّها».

ولقـد ظلّت خطّة دائـرة المعارف تهتدي على صعيد الاجرائي كذلـك بخـطّة صنـاعـة المعجم من جهة الترتيب والتبويب إذ يقول «البستاني» في مقدمته ص. ص 5 ـ 6. «قد رتّبنا دائرة المعارف ترتيبا قامـوسيا سهلا. . . فيكفيه (القارىء) ان يعرف تهجئة الكلمة. . . فيطلبهـا في الحرف الأول منها سواء كان من أصول الكلمة أو مزيدا عليها. ويشير «وجدى» في مقدمته إلى ان مادة تصنيفه «مرتّبة ترتيب القاموس لتسهل مراجعتها على الطّالب»

ويسجّل «الأعلمي» في ص. 4. من مقدّمته «. . . قد راعيت في حروف الكلمات كل ذلك على ترتيب حروف المعجم والهجاء. . . ثم ذكرت في الاثناء ما يتعلّق بالكلمة من باب المناسبة والاستطراد».

والتـزم «أحمـد عطيّة» في «القـاموس الاسلامي» ترتيبا أبجديا وصنّف التّهـانـوي مواده» أبوابا وفصولا، الباب باعتبار أوّل الكلمة والفصل باعتبار آخرها». . . فلعلّه يتّضح حينئذ ان حدود الفصل بين دائرة المعارف والمعجم في ذهن اللغوي العربي واهية وان عناصر التمييز بينهما منطمرة مادام الفهم المنبني على المدركات يحيل على المعجم إحالته على دائرة المعارف ومادام التمثّل والتصور يسلمان إلى الصّنفين مجتمعين متكافئين فضلا عن المستحصل منهما من تماثل وتطابق بينهما من جهة ردّ المواد إلى ترتيب واحد. . . حتى لكأنّ الشأن تطويل وتوسيع وتبسّط أو على حدّ عبارة «وجدى» في مقدمة. مج (1). «فبدل ان نقتصر على بعض اللغة نلمّ باللغة كلّها».

فإذا كان العقل المدرك العربي لا يفصل فصلا واضحا بين حدود دائرة المعارف وبين حدود المعجم ووسعنا ان نردّ المدركات فيهما بعضها الى بعض جازت مسألة: إلى اي مدى حينئذ يمكن ان نستخدم دائرات المعـارف مصدرا من مصادر المعجم التاريخي بعد ان ألمعنا إلى إجماع لغوي يمكن ان تختزنه عبارة أوجيست فيشر الآتية (في القسم الاول من

المعجم التـاريخي. ص 7.) وان تختزله «المعجمات العربية بعيدة كل البعد عن وجهة النظر هذه إذ انها لا تعالج الناحية التاريخية لمفردات اللغة بل تقتصر على إيضاح الاتجاه النموذجي لها» فضلا عن التذكير بمنحى المعجميين المحدثين والذي يمكن ان تنبىء به عبارة «البستاني» الآتية في ثنايا تقديم «قطر المحيط» وقد سمّيناه بقطر المحيط لأن نسبته إلى كتـابنـا المطوّل في هذه الصناعة بمحيط المحيط توشك ان تكون كنسبة قطر دائرة إلى محيطها».

إنّـه لئن فاق حظّ عنـاصر المؤالفة والمجانسة بين دائرة المعارف والمعجم حظّ عنـاصر المخـالفـة والمغايرة وانخرطت دائرة المعارف في مظاهـر العمـل المعجمي المعهـودة من جهـة المفهوم والوظيفة وخطّة الانجاز فان الناظر في مقدمات دائرة المعارف يستشفّ انبثاث هاجس عنه صدر أصحاب دائرات المعارف وفيها اندسّ بدرجات متفاوتة إن هو إلّا الحاجة الملحة إلى سدّ مواطن شغور عديدة بين الاسماء والاشياء في جانب اللّغة العربية وقد تجمعت منبّهات الحاجة في حركة الزمان اي في التاريخ.

إنه لئن لم ترق مفهوميا دائرات المعارف العربية إلى درجة ينكشف معهـا ان الموسوعيين العرب المحدثين فقهو ان للكلمة أطوارا تاريخية والتقـطوا ظاهرة تحولات المعنى وبصروا بمعنى التحولات فهل يعني ذلـك اننا عدمنا في دائرات المعارف عبر خطّة انجازها إجرائيّا ما قد يشفع لها مصدرا من مصادر من مصادر المعجم التاريخي على صعيدي المعرفة والمنهج؟

---

(21) ـ انظر ـ مثلا ـ ر. بلاشير: تطورات اللغة العربية ومجاراتها للعصر الحاضر (ترجمة محمد فريد غازي) الفكر س 4 ع 6 مارس 1959 ص ص 62 ـ 64

ـ وانظر كذلك: تزب ارمنغ (مستشرق أمريكي): نظرية ابن خلدون في اللغة المرجع السابق ص 51

لقد انبنت سائر دائرات المعارف المعدودة على نزعة موسوعية إذ رامت غزارة المادة مطلبا واستفاضة البحث منهجا فنشأ عن ذلك استتباعا واستلزاما ـ ان تراكمت المعارف وان استبدّت رغبة البحث في الاحاطة والاستيفاء بالتصنيف الذي انقاد بدوره الى عمل معجمي سرعان ما انشدّ إلى الانشغال بتعدد المعاني انطلاقا من المعنى اللغوي فالمعنى الاصطلاحي في غياب مطلق لاستحضار أحوال الكلمة وتغيرات معناها ومعنى تغيراته على غرار ما يلي من أمثلة نموذجية تتوزع على جانب من الموسوعات المرصودة:

يقول «البستاني» في مج . 2 . ص 558 :
ـ احتكار = الاحتكار في اللغة احتباس الشيء لغلائه وفي الاصطلاح الشرعي اشتراء قوت البشر والبهائم وحبسه الى وقت الغلاء . . .
ـ وفي مج . 2 . ص 622 :
ـ اختيار = الاختيار ترجيح الشيء وتخصيصه وتقديمه على غيره وهو أخصّ من الارادة وفي اصطلاح النحاة امتلاك إجراء الكلام على اصله ونقيضه وهو التزام إخراج الكلام عن أصله لباعث يستلزم ذلك . . . وفي اصطلاح المتكلمين قد يطلق على الارادة وقد يطلق على القدرة ويقابله الايجاب . . .
ويورد «وجدى» في مج . (1) . ص ص 307 ـ 309

اسفكسيا : = كلمة أعجمية معناها الاختناق . وهي حالة تعتري الانسان بعارض من عوارض كثيرة ينقطع فيها النفس ويظهر على المصاب علامات الموت وما هو بميّت .
ـ أسبابه = رداءة الهواء أو عدمه كما في حالة الغرق والخنق . ومنها ما يحصل من زيادة الحرارة . . . ومنها ما ينشأ من الصواعق . . . الاختناق من الفحم . . . الاختناق بالغرق . . . الاختناق من الحمام . . . الاختناق من الازدحام . . . اختناق الاطفال المولودين . . .

ويورد «الاعلمى» في مج . (1). ج 2 . ص 223 :
الآل = بالمدّ. قال في (مص) آل يؤول أولا ومآلا . رجع . والآل أهل الشخص وهم ذو قرابته. وقد يطلق على اهل بيته وعلى أتباعه. وقال . . . أهل الرجل آله وهم أتباعه وأهل ملّته (ثم) كثر استعمال الآل على اهل بيت الرجل لأنهم من يتبعه وأهل كل نبيّ أمّته .

ويورد أحمد عطيّة . في مج 2 . ص 70 :
الحزب = لغة الطائفة من الناس أو الجماعة المؤتلفة من حيث المعتقد أو العمل الذي تشترك فيه وقد جاء لفظ حزب في القرآن بهذا المعنى حينا مجردا مثل قوله تعالى «كل حزب بما لديهم فرحون» أو مضافا إلى الله تعالى مثل قوله تعالى «رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله» أ و مضافا إلى الشيطان مثل قوله «ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون» كما وردت كلمة أحزاب وهي جمع حزب في مواضع مختلفة من القرآن تشير إلى طوائف الكافرين بدعوة الرسل والانبياء عامة. قال تعالى: «فلمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله» .
2 ـ الحزب اصطلاح يقصد به قسم من القرآن الذي ينقسم إلى ثلاثين جزءا وكل جزء يقسم إلى حزبين . . .
3 ـ الحزب اصطلاح يقصد به الورد الذي يتلوه الصوفي في خلوته وهو مجموعة من آيات قرآنية وأدعية يصوغها الولي لأتباعه .

ـ وانظر كذلك على سبيل المثال : أحمد تيمور: الموسوعة التّيموريّة : «من كنوز العرب في اللغة والفن والادب» . القاهرة . 1961 .
ص . ص 27 ـ 29 . قصيدة في معاني لفظ العين لأحمد السجاعي (ت 1197 هـ) . (26 معنى) .

وقلّما عثرنا على استخلاص دلالات اللّفظ المتطورة من عصر الى عصر ومن بيئة الى بيئة على غرار ما صادف ان سجّله «وجدى» في دائرة معارفه مج . 6 . ص 583 . من تحولات في المعنى ومعنى التحولات التي طرأت على كلمة «العلم» وإن كانت منقوصة من الشواهد الحاسمة إذ يورد :

«العلم : كلمة من أشيع الكلمات المستعملة قديما وحديثا وهي في كلّ دور من أدوارها تطلق على ما يضاد الجهل على الاطلاق وكثيرا ما لحق بها التّخصيص في أحوال معيّنة فصارت تعنى ما يضاد الجهل بنوع محدود من المعارف . فلنعتبر حال هذه الكلمة عند العرب مثلا في حال جاهليتهم فقد كانت تطلق على ما ينافي الجهل بمعارف الجاهليين المحدودة وكانت لا تتعدّى الشعر والكهانة والقيافة والخطابة والانساب فلمّا ظهر الاسلام كان يراد من العلم ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة وهي الكتاب والسنة وأخبار الملاحم . ولما ازدادت معارف العرب صارت تطلق على ما ينافي الجهل بما ظهر من المعارف الجديدة كالفقه والتفسير وشرح السنة والتاريخ وطبقات رواة الحديث والنحو ثم انتشرت العلوم الكونية فيهم وتشعّبت المعلومات لديهم فصار يستعملها كل فريق فيما هو بسبيله فاتسع مدلولها اتّساعا يناسب اتّساع مجالات المعارف الجديدة . ولكنّها اليوم تعني في أوروبا مجموع المعارف الانسانية المؤيدة بالدلائل الحسّية وجملة النواميس التي اكتشفت لتعلّل حوادث الطبيعة تعليلا مؤسسا على تلك النواميس الثابتة ولا تستعمل إلا مفردة ومع هذا فقد تطلق على مجموع معارف في فرع خاصّ من المعارف الانسانية وفي هذه الحالة يلحق بها التخصيص فيقال : علم الكيمياء وعلم الفلك مثلا . وقد يعتبرها الجمع فيقال العلوم الكونية والعلوم الرياضية . وقد كابد العلم تخصيصا معنويا في هذه القرون المتأخّرة فصار لا يطلق إلا على المعارف التي تقع تحت أحكام المشاعر وتخضع لامتحانها» .

فلعلّ هذه المثال وأشباهه ونظائره تمانَدُر استحصاله من دائراتٌ

معارف العرب المعدودة من بعض آثار وعي مصطدم بحقيقة تغيّر الزمان غير انه لا يترسّم في الفكر ولا يتجسّم في اللغة إلا متى أطلّ المثقف العربي على شيء من أسباب تمدّن الآخر (الغرب ⟷ العلم)، وإن هي إلا وثبات معدودات سرعان ما تَغْبر في مظاهر العمل المعجمي المألوف الذي يردّ دائرة المعارف إلى معجم مطول أو الى معجم أعلام (22) أو المعجم إلى ضرب من دائرة معارف.

إنّ افتقاد التضام أو التضايف بين اللغة من جهة أنّها كيان حي يخضع لسنّة التطور والتبدل وبين التاريخ (الزمان) من جهة انّه حركة دائبة وقوة دافعة في أعمال المعجميين العرب النهضويين قد وازاه وعي عارف ـ عند المستشرقين ـ «بالناحية التاريخية لمفردات اللغة» نرصد رسومه في حدود ما نحن بصدده في «دائرة المعارف الاسلامية» على صعيدي التصور والمنهج في الوقت نفسه (أي على صعيدي العلم ومنهج العلم) إذ لا يخلو تقريبا ـ بشيء من المسامحة والتجوّز ـ استخدام مفهوم من المفاهيم من ثوابت خطّة عمل أهمّها تاريخية اللّفظة وتحوّلات المعنى ومعنى تحوّلات المعنى تاريخيا وفكريا وتثبيت الشواهد الحاسمة وذكر المراجع.

وإذ أنّ الشاهد يزيد الحجّة إقناعا وجب ان نضرب بعض الامثلة التي انتخبنا منها المواد اللغوية الآتية (23):

ـ أدب. مج 1. ص 532

ـ زكاة. مج 10. ص 355

ـ زنديق. مج 10. ص 441

---

(22) ـ انظر على سبيل المثال أيضا «دائرة المعارف» بطرس البستاني

ـ ومجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الكبير ج(1) حرف الهمزة (1956) مطبعة دار الكتب ـ القاهرة 1970.

(23) ـ انظر نصوص الشواهد تامة في مظانّها إذ أسقطناها حتى لا نثقل العمل.

ـ صدقة. مج 14. ص 164
ـ صلاة. مج 14. ص 277
ـ صوم. مج 14. ص 392.

وإذا أنّنا ننشغل ـ خاصة في خطة مقصدنا ـ بنظام التصور وبالعلائق بين حلقاته وبشرائطها على تقدير انتظام اللغة في التاريخ و «باستراتيجية التّسمية» من جهة تقاطع محور «أسماء الأشياء» مع محور «آنات الزّمن» فإننا معنيون برصد القرائن اللغوية التعبيرية والتركيبية التي تسهم بدرجات متفاوتة في تسجيل المعنى الأول وفي تحديده تحديدا زمنيّا وفي الالحاح على تحولاته وعلى اسبابها على غرار:

«لفظ [أدب] كان يدلّ في الجاهلية والاسلام على... وهناك قول مأثور... وللفظ الأدب أيضا معنى مجازي إلى جانب هذا المعنى العملي نشأ عندما طمح النّاس إلى الثقافة... في القرنين الثاني والثالث للهجرة وهو بمعناه المجازي يدلّ على... (خزانة الأدب. ج 4 ص 124) الخ...

زكاة : (تعريفها الفقهيّ)... وعلماء الاسلام يفسّرون كلمة زكاة في العربية... والحقيقة أنّ النبي«صلعم»استعملها بمعنى أوسع من ذلك بكثير. وكان النبي وهو ما يزال في مكّة يستعمل كلمة «زكاة» ومشتقاتها مختلفة من مادة «زكا» (بمعنى طهر)... وهذه المشتقّات نفسها لا يكاد يكون لها في القرآن سوى ذلك المعنى الذي ليس عربيّا أصيلا بل هو مأخوذ عن اليهودية وهو «التّقوى» وكلمة زكاة تدلّ في الاصطلاح على... كما تدلّ أيضا مع تطور في المعنى لا يكاد يلحظ على... (انظر سورة الأعلى. آية 14 وسورة المؤمنون. آية 4 ـ وسورة اللّيل. آية 18...)

زنديق : . . . ثم صار الزنديق اسما له دلالته الثابتة (في ق 2 هـ) . . .
ولكن كلمة «زندقة» فقدت مع الاستعمال معناها الدقيق . . .
(الطبري . طبعة دي غوري ج 3 . ص 588) . . .
ويمكن بيان تطور هذا المصطلح من صبغته السياسية . .
ويستطيع الانسان ان يحدّد مراحل هذا التطور تحديد ادقّ إذا
هو أجمل ذكر تعريفات كلمة «زندقة» بحسب المذاهب
الاسلامية المختلفة . . .

صدقة : « . . . وهذا المعنى قد بقي للكلمة حتى عصر ظهور الاسلام
وما بعده . . . »

صلاة : . . . ويبدو ان كلمة صلاة لم تظهر في الآثار الأدبية السابقة
على القرآن . . . »

صوم : . . . والمعنى الأصلي للكلمة في لغة العرب . . . . أمّا الصوم
بمعنى الامساك عن الطعام والشراب . . . . وهذا المعنى
أصبح للكلمة في السّور المدنيّة . أمّا في السّور المكّية فهي لم ترد
إلاّ مرة واحدة في سورة مريم . الآية 27 . والمفسرون يفسّرونها
«بالصّمت» .

فلعلّنا نكون قد كشفنا ان خطة «دائرة المعارف الاسلامية» كثيرا
ما كانت دالّة على استحصال وعي لغوي عارف بمتانة العلاقة بين
استعمال الكلمة وأطوار تاريخها وبتحولات معانيها باختلاف الأزمنة
والأمكنة .

وانّه لوعي معرفي تعظم جدواه وتقلّ من جهة مدى الاهتداء به
في إنجاز المعجم التاريخي للّغة العربيّة على صعيدي المنهج أوّلا والمعرفي
ثانيا وأمّا ما سوى «دائرة المعارف الاسلامية» من دائرات المعارف

المرصودة فلقد انخرطت في حسّ لغويّ عربيّ قديم ـ وإن تفاوت من أثر إلى آخر ـ بقيمة تصريف الكلمة الواحدة وفق أوجه استعمال متعددة ومختلفة على تقدير تعدّد المعاني من فنّ إلى فنّ آخر في أحايين كثيرة واختلاف استعمالها من طور إلى طور آخر في الفن الواحد في أحايين قليلة أو نادرة تُطلّ ـ على نُدرتها ـ إطلالة غير قصديّة ـ على تخوم تصوّر المعجم التاريخي وتمثّله.

وإنّنا كثيرا ما نستحصل هذا الحسّ اللّغوي المستفاد والذي لم يرق الى مرتبة الوعي العارف بكنه المعجم التاريخيّ الذي يعنى بأوجه استخدام الكلمة التي يشفع لها اختلاف الاستعمال ويضمن لتطوّر معانيها شرعية الوجود من سياق الى سياق آخر ومن آن إلى آن مغاير من التّصانيف القائمة على صناعة التحديدات أو الحدود والتي درجت مباحثها على إثارة مسألة المتشابه من الالفاظ وما يوقع فيه من الأخطاء من جهة الوهم أو الظنّ وهي تصانيف كثيرا ما استخدم أصحابها قائمة أو أكثر قد تطول وقد تقصر في أوجه استعمال الاصطلاح الواحد من فنّ الى فنّ آخر مثلها في ذلك مثل التّفاسير والشّروح وآداب المناظرات والرّدود والدّعاوي وغيرها من التصانيف التي باتت على حظّ وافر ممّا أشبه ذلك العمل المعجمي [24]. ولعلّ صنفا آخر تضمّنته حركة التّأليف اللّغوي عند العرب حجّب عن أنظارهم إمكان صناعة معجم تاريخي يتأسّس على تصور معنى الكلمة باختلاف الاستعمال من طور إلى طور.

---

(24) ـ انظر ـ مثلا ـ الفارابي: كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق تحقيق محسن مهدي دار المشرق بيروت 1968

ـ ابن سينا: البرهان (الفن الخامس من كتاب الشفاء) تحقيق عبد الرحمان بدوي. ق. 1954

ـ ابن حزم: التقريب لحدّ المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والاسئلة الفقهية تحقيق إحسان عبّاس بيروت 1959

ـ الغزالي: المستصفى من علم الأصول ط(2) دار الكتب العلمية بيروت 1983 (2 ج)

ونعني شيوع كتب اللّحن ـ كان لحن عامة أو لحن خاصّة ـ على تقدير أنّها في نظرنا مشغل ـ على أهميّته نظريّا ـ هو ـ إجرائيا ـ ضرب من تعطيل تطور الاستعمال ووجه من وجوه إلغاء الاستعمال المغاير لأنها كتب لغوية رامت ترسيم حقّ القول الصائب وتثبيت سلطة المعيارية على عكس صنف آخر من التصانيف اللغوية من جنس كتب الفروق اللغوية [25]. وهو صنف لئن دلّ على وعي حادّ بالفويرقات المعنوية لوعي عارف بدقّة الاختلاف بين معاني الألفاظ المحمولة ـ استعمالا ـ على الترادف على وجه العموم فإنه لم يرق ذهنيا ـ اي في حدود التصور والتمثّل ـ بالفكر اللّغوي العربي عموما والمعجمي خصوصا إلى ان يلتقط قوانين المعجم التاريخي المتأسّسة في صميمها على وصل الكلمة بالاستعمال وفق آنات الزمان وأحايينه، فلم يسعه ان يبدّد ما ظلّ محتجبا عنه.

وهكذا انحبست حركة التأليف اللغوي الواسعة عند العرب ـ قديما وحديثا ـ في تآليف لغوية نراها عطّبت حلقة من حلقات نقلة الفكر اللّغوي العربي إلى ما كان يمكن ـ نظريا على الاقلّ ـ أن يتولّد عن ذلك العمل اللّغوي الواسع إذ عاقت ـ من جهة إجرائية ـ إخصاب المعجم التاريخي للغة العربية فلم تتجاوز ـ من جهة النّظر ـ استحصال وعي لغوي ظلّ خفيا أو عَرَضيا في شأن الوعي العارف باختلاف استعمالات الكلمة الواحدة من طور إلى طور ومن مكان إلى مكان إذ كان وعيا لغويا محدودا لم يرق ذهنيا أو فلسفيا إلى تصوّر إمكان أنظمة متعدّدة ومتغيّرة ومتطورة بين الكلمات والاشياء على مرّ الأزمنة وبتغير الأمكنة وإنما ظلّ قَيْد النقل والمجاز والمتشابه والمشترك والترادف في حدود البيان والفصاحة والبلاغة وبقي محكوما بسلطة القول الصّائب وصادرا

---

(25) ـ انظر مثلا: أبا هلال العسكريّ: الفروق اللغوية ـ مطبعة القدس ـ القاهرة 1934 ـ وانظر ـ لمزيد المعارف ـ وجدي رزق غالي: المعجمات العربية (بيبليوغرافية شاملة مشروحة) ـ نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة 1971.

عن سلطة حقّ القـول الفصيح دفعـا للتّـوهم ورفعـا للّبس لأنه رام المعيارية غاية وأعرض عن الوصفية المتجددة منهجا. ولكنه ـ مع ذلك ـ وعي لغـوي يحار له المـرء ان أتى على جلّ شرائط الكـلام المقـول والمكتـوب، الصريح والمستفاد، وعلى أنظمته تعلّما وتعليما ولم يخصب ضربا من صناعة المعجم التاريخي لو لم تتبدّد اليوم حيرتنا بما نقنع به من استلزام تنزيل ذلك المبحث المفتقد من حركة التأليف اللّغوي الواسعة في فهم شامل لبنية اشتغال العقل المدرك العربي ولأنظمة التّسمية فيه والتي قد لا ينيرها سوى عمل يكشف عن نظام تعامل العقل العربي عموما والفكر اللّغوي خصوصا مع حركة الزمن ولا نراه إلاّ مبحثا ذهنيا ثم إجرائيا بوسعه ان يكشف عمّا قد يخفيه علينا العمل المعجمي خاصّة واللّغوي عامّة في بعده الفكري من رؤية فلسفية هي المعين القاصي والحـاكم الفيصـل في أنظمة التّسمية الرّاسمة للعلاقات الجامعة بين الكلمات والأشياء أو اللغة والزمن.

فرحات الدريسي
كلّية الآداب، جامعة تونس (1)